مقدمة عامة

«مقدمة عامة»

يعالج هذا المؤلف موضوعاً على جانب كبير من الأهمية وهو «الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى».. دراسة مقارنة.

Transformation there in the Moslem Mysticism and Religions' Mysticism. (Comparative study).

وموضوع الفناء هو من الموضوعات الرئيسية للتصوف الإسلامى، بل هو المحور الرئيسى الذى تدور حوله نظرياته المختلفة. ولقد كان هذا الموضوع رسالتنا للحصول على درجة الدكتوراة.

وقد اعتبر الصوفية أسمى أنواع الفناء ذلك الذى يعود منه الصوفى إلى حال البقاء فلا يستغرقه الفناء ولا يستهويه بل يعود إلى البقاء ليحفظه من الزلل وينجيه.

فالعودة من الفناء إلى البقاء دليل على إثبات الإثنينية بين الله والعالم حيث يظل الحق قائماً بصفاته مفارقاً بذاته، ويظل الخلق خلقاً غير مماذج للإلهية أو مختلطاً بصفات الربوبية.

أما النوع الذى أنكره بعض كتاب التصوف من أمثال: الطوسى، والقشيرى، والسهروردى، وبعض الفقهاء كابن تيمية هو القول بفناء الذات فى الوحدة المطلقة، ونفى التعدد والتكثر عن الوجود بكل اعتبار ويعبر عنه بالفناء عن وجود السوى ويؤدى إلى القول بوحدة الوجود.

وهذا ما أثبتناه عند الحديث عن مفهوم الفناء فى العقائد الهندية القديمة، والفكر اليونانى، وكذلك مفهوم الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحية. وكلها اتجاهات نبذها الإسلام.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن ثمة تعريفات للفناء عند الصوفية تتجه إلى الجانب الأخلاقى باعتباره الأساس الذى اعتدوا به فى علاقاتهم بالخالق سبحانه وتعالى.

ومن ناحية أخرى توجد تعريفات تتجه إلى الكشف والإشراق فيشار إلى الفناء على أنه الحال الذى يتحقق فيه السالك بالمعرفة الكشفية التى لايمكن أن يحظى بها العاديون من البشر.

كما لا يغفل البحث التعريف عن الوجدانى الصوفى فتفصح عما يتمكن فى هذا الوجدان وما يضبط مشاعر الصوفى بدرجة تفوق كل تصور فتجعله يتحمل كل ما هو مؤلم بل يشعر باللذة من خلال الألم. يصل بهذا إلى حال من التوازن النفسى، وهذه التعريفات هى التى تشكل فى مفهومها الجانب النفسى لحال الفناء إذ تصف ما يحتمل فى باطن الصوفى من نوازع وأسرار وترسم لنا كيفية الوصول إلى حالة من الانسجام الروحى والتوافق الباطنى الذى يحظى به أولئك الذين خبروا بالحال.

لما كانت الفصول الثلاثة الأولى من هذا البحث تتناول استعراضاً عاماً لمفهوم الفناء بداية بالعقائد الهندية القديمة ونهاية بالعقيدة المسيحية بما يلزم من تمحيص للوقائع وتحديد للمفاهيم، لذلك فقد استخدمنا المنهج التاريخى مع الاستعانة ببعض التحليلات والمقارنات التى تقوم على مواجهة النصوص نفسها.

ولما كانت الفصول الباقية من هذا البحث تقوم على دراسة تحليلية للفناء عند صوفية المسلمين، لذلك فقد ركزنا فيه بصورة أكثر على المنهج التحليلى، وبذلك يصبح المنهج المتبع فى الدراسة ككل هو: «المنهج التاريخى التحليلى المقارن».

استخدمنا المنهج التاريخى فى بعض المواقع كلما دعت الضرورة لرد فكرة إلى أصلها أو بيان تطور فكرة أخرى منذ بدأت وكيف تطورت.

أما المنهج النقدى، فقد اكتفينا فى معظم أرجاء البحث بتوجيه بعض الانتقادات من جانبنا بقدر ما يتوصل إليه تحليلنا للفناء عند صوفية المسلمين وأصحاب العقائد الأخرى. ولم نكتف بذلك بل قمنا بعرض الانتقادات من

جانب الآخرين فى أوسع نطاق وعلى سبيل الاستشهاد لتأييد رأى نراه أو دحض رأى آخر يراه من يختلف معنا فى التفسير حتى لا تختلط الانتقادات. ويختلط الأمر بالتالى على القارئ. إلا أن هذا لم يمنعنى من الاعتماد على المنهج النقدى تماماً.

استخدمنا إذن منهجاً تاريخياً تحليلياً مقارناً بصفة عامة، تاريخياً فى بعض الجوانب نقدياً فى جوانب أخرى كلما دعت الضرورة لذلك، وتوخيت أن تكون أوجه المقارنات التى أوردتها فى ثنايا عرضى لهذا الموضوع ملائمة لسياق البحث.

ويرجع اختيارى لهذا المنهج دون غيره إلى ما تتطلبه طبيعة البحث فى مثل هذا الموضوع المتعدد الجوانب والمتشابك، وما يتضمنه من تداخل وترابط الأفكار والتصورات، الأمر الذى استدعى الإشارة إلى الفناء من تلك البدايات فاندفعت دارساً لهذا البحث من منظورين:

الأول: أفقى : اقتضته طبيعة البحث للإلمام بمفهوم الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى.

الثانى: رأسى : وهو المنظور الأهم لدينا حيث اقتضته طبيعة البحث، عندما قسمنا البحث إلى فصول يمثل الواحد منها عنوان موضوع بعينه، ومن ثم بدأنا نجمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع من هنا وهناك.

وبناء على ما تقدم رتبنا فصول الرسالة على الوجه التالى:

الفصل الأول: جاء بعنوان «مفهوم الفناء فى العقائد الهندية القديمة». استعرضنا فيه المباحث التالية:

أولاً: العقيدة الفيدية.

ثانياً: العقيدة البراهمانية.

ثالثاً: الصلة بين الفناء والتناسخ فى العقيدين البراهمانية والجينية.

رابعاً: العقيدة البوذية.

وتعرضنا فى هذا الفصل لمفهوم الفناء من وجهة النظر الهندية. وفى ختام هذا الفصل اعتمدنا على أوجه المقارنات بين مفهوم الفناء فى هذه العقائد ومفهومه فى العقيدة الإسلامية. فإذا كان الفناء مرحلة سلبية وقف عندها الهنود فإن البقاء عند صوفية المسلمين مرحلة إيجابية عتبتها الفناء. أى أن التصوف الإسلامى بعد أن وصل إلى مقام الفناء استمر بعدها إلى أن أكد الصوفية مرحلة البقاء بعد الفناء.

من هنا نؤكد أن البقاء مقام من المقامات الهامة التى يمتاز بها التصوف الإسلامى عن غيره من أنواع التصوف الأخرى.

الفصل الثانى: ويدور حول : «الفناء فى الفكر اليونانى».

عرضنا فيه : أولاً ـ الفناء عند فلاسفة اليونان.

ثانياً ـ الفناء عند الأفلاطونية المحدثة.

وهنا يجب توضيح العلاقة بين العقيدة الهندية والفكر اليونانى بصدد المنهج: فإذا كانت الفلسفة الهندية بعيدة عن المنهج العلمى ممتزجة امتزاجاً شعرياً بالدين، فإن الفلسفة اليونانية تمسكت بالمنهج العلمى مع الحقائق لا مع المجازات الشعرية.

وهذا الفصل يناقش بشئ من الدقة والتركيز الفناء عند أصحاب هذا الفكر. والذى يعنينا هنا هو البحث عن حقيقة الفناء بين الفكر اليونانى والعقيدة الإسلامية. من هنا انصبت الدراسة على أوجه المقارنة بينهما بصدد الفناء.

وألحقنا هذا الفصل بتعقيب يوضح النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

الفصل الثالث: ويأتى متناولاً : «الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحية».

وينقسم إلى مبحثين:

أولاً: العقيدة اليهودية.

ثانياً: العقيدة المسيحية.

وغرضنا من هذا الفصل الإشارة إلى مفهوم الفناء فى العقيدتين اليهودية والمسيحية مقارناً بينه وبين مفهوم الفناء عند صوفية المسلمين.

وقبل أن أنهى بحثى من هذا الفصل أوكد أنى التزمت منهج العقل وهو منهج القرآن الكريم حكماً فى كل ما تعرضت له، بعيداً كل البعد عن أى حكم ظنى، فالظن كما يقول منهج العقل القرآنى لايغنى عن الحق شيئاً.

الفصل الرابع : ينصب هذا الفصل على دراسة خصائص الحياة الروحية عند الأنبياء والصحابة والتابعين. ولقد قسمنا هذا الفصل إلى عدد من المباحث نجملها على الترتيب التالى:

أولاً: أحوال ومقامات الأنبياء.

ثانياً: الإسراء والمعراج.

ثالثاً: الفناء والبقاء عند الصحابة.

رابعاً: الفناء والبقاء عند التابعين.

الفصل الخامس: أفردنا هذا الفصل لدراسة: «سمات الفناء وخصائصه عند صوفية المسلمين». استهللناه بمقدمة، وخصصناه بالمباحث التالية:

أولاً: تعريف الفناء.

ثانيا: أول من تكلم فى علم الفناء.

ثالثاً: المعنى النفسى للفناء.

رابعاً: المعنى العرفانى للفناء.

خامساً: المعنى الأخلاقى للفناء.

سادساً: درجات الفناء.

سابعاً: أقسام الفناء.

ثامناً: درجات العارفين.

تاسعاً: التوحيد.

عاشراً: الولايــة.

حادى عشر: التدبيـر.

ثانى عشر: اليقيــن.

ثالث عشر: الذكــر.

رابع عشر: الدعـاء.

خامس عشر: الفناء والبقاء.

الفصل السادس: موضوع هذا الفصل هو: «الفناء والأحوال عند الصوفية».

وسوف نتناول فيه أهم الأحوال عند الصوفية موضحين علاقتها بالفناء.

ومباحث هذا الفصل جاءت على الترتيب التالى:

أولاً: الغيبة والحضور.

ثانياً: السمـاع.

ثالثاً: الوجــد.

رابعاً: السكر والصحو.

خامساً: الشطـح.

سادساً: الجــذب.

سابعاً: العماء أو الحضرة العمائية.

ثامناً: الصعـق.

تاسعاً: السفــر.

عاشراً: الفرق والجمـع.

حادى عشر: الأنس.

ثانى عشر: التلوين والتمكين.

ثالث عشر: القبض والبسط.

رابع عشر: القرب.

الفصل السابع: يتناول هذا الفصل: «الفناء والمقامات عند الصوفية».. ويأتى مقسماً إلى عدد من المباحث نرتبها فيما يلى:

أولاً: التوبـــة.

ثانياً: المجاهـــدة.

ثالثاً: الزهـــد.

رابعاً: الـــورع.

خامساً: الخـــوف والرجاء.

سادساً: الفقـــر.

سابعاً: الصـــدق.

ثامناً: التوكـل.

تاسعاً: الصبـــر.

عاشراً: الرضـــا.

حادى عشر: الشكر.

ثانى عشر: المحبـــة.

ثالث عشر: التقـــوى.

رابع عشر: الإخـــلاص.

خامس عشر: الإحســـان.

تلك هى الموضوعات الرئيسية التى أردت أن أعرض لها فى إطار دراستى لموضوع:

«الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى». دراسة مقارنة.

وأخيراً: خاتمة ونتائج عامة للبحث.

وفـى نهايـة البحـث قدمـنا النتائـج التـى أمـكن التوصـل فـيها مـن خـلال ما استعرضناه من موضوعات معرضاً فيها وجهة النظر النقدية بالإضافـة إلى ماتضمنه البحث من استنتاجات.

وقد ذيلنا البحث بقائمة تحوى أهم المراجع التى استخدمناها سواء أكانت العربية منها أم الأجنبية، بالإضافة إلى مجموعة المراجع والأصول التى اعتمدنا عليها.